رأيان في رواية :
« الظمأ والينبوع »

تنشر « الآداب » فيما يلي رأيين مختلفين في رواية « الظمأ والينبوع » للاستاذ فاضل السباعي ، مفسحة المجال للنقاش .

الرأي الاول
بقلم ممدوح مولود

اول ما يستوقفك في مؤلفات فاضل السباعي تلك الديباجة المشرقة ، والاخراج الفني الذي يعتمد بالدرجة الاولى على التزام الزوايا المضيئة في شتى اللقطات والمواقف .

ان قارىء فاضل السباعي يستسلم تلقائيا لقوة الجذب النابعة من اعماق القضية ، ولهذا فهو ليس بحاجة الى ارهاق الفكر كما تتطلبه مؤلفات الكتاب الاخرين .

ولامر ما ، يلتزم فاضل السباعي السهولة في التعبير ، والخفة في التنقل ما بين المواقف التي تستلزمها حوادث القصة . والسهولة في التعبير عند فاضل موهبة صقلها المران الطويل ، والممارسة المستمرة للقصة بانواعها قصيرة كانت ام طويلة .

والحديث عن رواية ـ الظمأ والينبوع ـ للاديب فاضل السباعي ، هو حديث عن ادب المجتمع وادب الواقع . وقد يسر مثل هذا اللون من الادب فئة ولا يرضي فئة اخرى . الا ان الاديب الاجتماعي الذي تنبع وقائع قصصه من صميم الواقع لا يبعث فيه الغرور استحسان المعجبين ولا يثبط همته استياء الساخطين .

ان الادب الخلاق ليس حريا به ان يلتف لاولاء وهؤلاء، لانه رسالة، ورسالة الادب الزام للضمير بتحمل تبعات المسؤولية القائمة عليها مهمة الادب . والاديب الاجتماعي اديب مخطط . يرسم للاخرين ولا يحدد . يكشف الحقائق ولا يلزم . ينبه الاخرين ولا لوم . انه ريشة ملهمة تمر بالواقع فترسمه لوحات ولوحات ، ويأتي بعد ذلك دور النقد . ان النقد يأتي في الدرجة الثانية بعد الادب . والنقد هو الجسر بين الاديب والقارىء . والقراء المثقفون يستفتون عن النقاد فيقيمون الاثار الادبية باحساسهم الواعي لمنجزات الادب ما دامت حركة النقد معطلة .

وما قلته في كتابي ـ مرآة وريشة ـ عن الاديب فاضل السباعي، اقوله ثانية واؤمن بأن فاضل السباعي هو في الطليعة من كتاب الادب الاجتماعي الهادف بوعي وامان واخلاص .

ان ادب فاضل السباعي معارض صور دافئة سرعان ما تتسرب الى النفوس بصورة عفوية ولا غرو في ذلك ، ففاضل قبل كل شيء انسان قد فتح صدره لكل المعذبين في الارض ، يتحدث عنهم ، ويتحدث باسمهم ، واذا اقتضى الامر فانه لا يتوانى عن الدفاع عنهم ، ونلمس هذا بحرارة في طوايا سطور كل ما كتب من قصص وروايات .

واذا وقفنا وقفة خاصة عند ـ رواية « الظمأ والينبوع » (١) ـ تبين لنا مدى اخلاص فاضل لمذهبه هذا في الادب . فهو قبل ان يكون بائع صور ، او مثير شهوات ، مؤمن بدور الادب في اعادة تنظيم المجتمع، وقليل من الادباء يفكرون في ذلك تفكيرا جديا .

واذا كنت الوم فاضل السباعي على مغالاته في الزام الادب بالاخلاق، فانني اجد له من المبررات ما يجعلني اكثر ميلا الى تأييده . ففي رواية ـ الظمأ والينبوع ـ تتجلى قمة الشهامة والاريحية والنخوة . ان بطل الرواية يربأ بنفسه من ان تنحط الى درك ليس اسمى من الشهوة التي تتنازعه .

ان ذلك الحوار المزدحم بشتى الانفعالات والذي يصور لنا تمزق الانسان ذي الضمير الخلاق امام تيار الاغراء ، والاثارة الجامحة ، ليصدق القول فيه انه معرض رائع للانسان في تحديه للاقدار . انه لحوار مشرق ينبض بالحياة حقا ، ويتركنا ذاهلين من هول المفاجآت ، وعنف المعاناة .

ان ـ هيلغا ـ في رواية ـ الظمأ والينبوع ـ هي دعوة الاباحية السافرة بوجهها الماجن ، لكن بطل الرواية كان اقوى شكيمة ، واعز منعة امام ذلك الاغراء . واذا كانت ـ هيلغا ـ قد كشفت لبطل الرواية حقيقة التفكك والانحلال الخلقي في اوروبا ، فان بطل الرواية كان بصموده اقوى تعبيرا عن حقيقة الاصالة في كيان الانسان العربي المعاصر.

انها لمواقف .. وصور .. تجعل من الرواية في فصولها الاخيرة مثلا اعلى للانتصار على الظمأ . ان للشهوة ايضا قدسية لدى بطل الرواية ، ولهذا فهو يصر على احترامها ، ويأبى انتهاكها على اشلاء كرامة صديق ولو كان اجنبيا . وتبلغ به الكبرياء حدا تتجمد عنده كل دوافع اللهفة فلا يكاد يتلمسها في حنايا ذاته ، كما تنطفىء كل السنة اللهب التي تصعقه بها هيلغا .

لقد ضرب فاضل السباعي في روايته هذه المثل الاعلى للتضحية العربية ، ورفع لون الادب العربي عاليا بين تيارات الادب العالمية .

حلب — ممدوح مولود

(١) من منشورات « دار الاداب » بيروت .

الرأي الثاني
بقلم حبيب الزحلاوي

صديقي الاستاذ فاضل السباعي

تحية طيبة وبعد .. لقد اوقفتني موقفا حرجا بين قصتك « ضيف من الشرق » التي اختلف النقاد ـ حسب قولك ـ في رفعها الى القمة العالية والهبوط بها الى المهبط الداني ، وبين قصتك الاخرى « الينبوع والظمأ » وهي عين القصة الاولى بمعناها ومرماها ، الا انه طاب لك تطويلها ، اعتقادا منك ان في التطويل « تثبيتا للمثل الخلقية التي آمنت بها » وقد املت لحسن ظنك بي ـ ان تسمع مني رأيا صريحا .

اقول لك يا صديقي انك اوقفتني موقفا حرجا ، لا بالنسبة لي ـ وانا اقيم في عاصمة دولة اشتراكية يدعو ميثاقها الى النقد الذاتي ، ولا يتحرج كتابها من تسمية الاشياء باسمائها ، ولعل دليلي على هذه

الحرية في النقد الادبي ، كتابي « شيوخ الادب الحديث » وقد تقبله شيوخنا الادباء ، ـ على ما فيه من صرامة وحقائق ـ تقبل من يحترم حرية الرأي ، وحسن القصد . بل بالنسبة لك انت الكاتب الاديب المقيم في القطر العزيز واكثر كتابه تضيق صدورهم بالنقد بخاصة وبالنقاد بعامة ، ويعدون النقد اطلاقا عداوة شخصية ويخرجونه عن مدلول الخصومة الادبية الضرورية الواجبة .

الم يبلغك موقف كاتب من دمشق ، كنت اكن له ولزوجته كل محبة وتقدير يقول عني اني « اكتب بالعصا لا بالقلم » يعني انني لا اداور ولا اساير ، بل اسمي الاشياء باسمائها ولا اهمل نقطة فوق حرف ، وبذلك اغضب اصحابي واكثر اعدائي ؟ ولعلك ـ وارجو ذلك ـ ان تكون الاديب الشامي الوحيد يتقبل رأيي باعتباره رأيا فرديا لا يمس الصداقة الشخصية .

***

قصتك القصيرة « ضيف من الشرق » تحكي حكاية شاب عربي عرف رحالة من ابناء الغرب هبط مدينة حلب كجواب دارس مستطلع ، وقد عز على الشاب العربي رؤية هذا الغريب يفرز عمود خيمته ويشد اطنابها في ارض فضاء لصق داره ، يأوي اليها . كما طاب له التعرف بهذا الغريب ، فدعاه الى بيته ، واحسن ضيافته ، ولما عرف انه من ابناء المانيا اكرمه وصادقه لان في نيته السفر الى تلك البلاد في طلب العلم ودرس اصول الكهرباء وهندستها ، وقد سافر فعلا بعد زمن اليها ، ورأى ان من حق الصداقة زيارة صديقه الرحالة في داره ، ومن المصادفة ان يكون الرجل غائبا عنها ، وان السيدة زوجته هي التي استقبلت هذا الزائر الطارىء فلما عرفت منه انه صديق زوجها ، وانه كان كلمها في امر الكرم العربي وسخاء هذا الصديق بالذات فقد استقبلته استقبالا وديا واهلت به ، وافاضت في الترحيب بهذا العربي سليل اجيال شهريار في الف ليلة وليلة ، وقد وقع من نفسها موقع الرضا ، ولقي في قرارتها صيدا شهيا في هذا الشاب الوسيم صاحب العينين السوداوين والبشرة الخمرية وتوهج الشباب . ولما كانت الزوجة على شيء ليس بالقليل من الملاحة والجاذبية الجنسية متمثلة في عينيها الخضراوين ، وفي جسمها البض وشبابها الريان فقد وسوس شيطان الشبق لهذا الشاب افتراص الفرصة واغتنام الغنيمة . ولكنه تهيب الموقف وتكمش حياء ، الا ان الزوجة كانت اكثر جرأة من هذا الشاب الشرقي الحيي ، فتصدت له بحديثها الناعم اللين ، ونظراتها الناعسة ، ودلالها وغنجها ثم راودته عن نفسها ، ثم اندفعت نحوه وقد انفلت منها زمام الحياء ، ولم يكن الشاب اقل منها تهيجا واندفاعا ، غير انه لما وقف منها موقف الرجل من المرأة وكاد ان يهم بها ، وقع نظره على صورة شمسية لزوجها معلقة على الحائط ، زوجها الذي اكل معه « الخبز والملح » فانكمش ، فتيقظ ضميره ، وتنبه شعوره ، وانتصبت حياله عوامل التقاليد العربية وعادات العرب في المحافظة على الاخوة ، وصيانة العرض ، فارتد معتذرا وانتهت الحكاية بانتصار التقاليد العربية الموروثة على الناموس الطبيعي واندفاع الشباب .

يمثل هذا الملخص الوجيز هيكل القصة القصيرة « ضيف من الشرق » اما القصة الاخرى « الينبوع والظمأ » فهي عين القصة الاولى بمعناها لا بمبناها وقد طاب لمؤلفها ان يمطها ويمغطها فجاءت طويلة تقع في نحو مائة واربعين صفحة ليس فيها زيادة عن القصة القصيرة سوى الافاضة في وصف مشوق منفر في آن واحد لحالة الانسان في بهيميته الاصيلة ، تدفعه الغريزة دفعا جنونيا لا هوادة فيه ولا وعي ، وتسخره لعملية التلقيح ابقاء على النوع ، وقد غالى الكاتب غلوا مطلقا في تجسيم الواقعة الجنسية ، وطلائعها في الجذب والمد ، في الدغدغة والزغزغة ، في التهرش والتداعب ، في التحبب والممانعة ، والافاضة في وصف الاندفاع وصفا ينزع القصة من الواقع الممكن ويحطها في اللامعقول . ويحسن في عينيه ـ ولا ادري لماذا ـ زيادة الطين بلة فيجعل السيدة زوجة صديقه تروح الى غرفتها لتعود اليه عارية الا من غلالة شفافة لا تستر عورة وترتمي الى جانبه في مقعده العريض الوثير ، تلصق جسمها بجسمه وخدها بخده وتتقابل الشفاه ، ومن المستغرب حقا ان يفسح الشاب ـ وهي في الحالة التي صورت الجانب الضئيل منها ـ مجالا لحديث افلاطوني في فلسفة الدين وفي المقارنة بين الكتب السماوية الثلاثة ورسلها الاكرمين ، والفارق بين هذه الرسالات ودعواها ، يحدث كل هذا والمرأة الالمانية لصيقة الجسم بجسمه ، لصيقة الخد بخده ترتشف الكلام من شفتيه ، والادهى بل الانكى شكاية المرأة للشاب تعطشها للرجل لانها شبه متروكة من زوجها الرحالة الذي لا يستقر في جوارها وفي منزله الا في الخلال بين رحلة ورحلة ، يجري كل هذا والمرأة بين ذراعيه يعصرها تارة ويدغدغها تارة اخرى ، وفي النهاية يحدثها عن الوفاء ، والصداقة ، والتقاليد ، والعادات والشرف والحياء والعفاف ، والامانة الزوجية ، وينتهي الامر بالابتعاد عنها فتنسحب تلك المسكينة دون ان تصفعه ، وقد حلا للمؤلف ان يظهرها عارية في حين ان الزوجة مهما تفتحت فهي لا تبدو عارية فتفقد الحياء النسائي الاصيل فتصبح كالدجاجة المبلولة كما يقال في الامثال الغربية . وقد انتصر العفاف الشرقي وسلمت الكرامة العربية ، وصين حق « الخبز والملح » (كذا) .

يعتقد المؤلف الاستاذ فاضل السباعي ان غايته المثلى من الاغراق في الوصف والتطويل والترديد تنفر القارىء لا تشوقه ، وان وسيلته هذه « كفيلة بتثبيت المثل الخلقية » التي كفرت بها السيدة « كوليت خوري » وليلى البعلبكي ونبيل خوري وسواهم ممن حذا حذوهم من كتاب سوريا ولبنان في الولوغ في ادب الجنس . وهذه ظاهرة شامية لها ضريع في مصر يتزعمها الاستاذ احسان عبد القدوس والسيدة جاذبية صدقي لا محيد لعلماء الاجتماع عن درسها وشرح اسبابها . وازعم ان هذا النوع من الاغراء الجنسي ، مهما حاول عشاقه من تسويغه ، ما هو سوى ضرب من الاستمناء الادبي « وجلد عميرة » وعلى ذلك يكون بناء القصة القصيرة في حيز « ممكن الوقوع » اما القصة الطويلة فهي من النوع اللامعقول .

وبعد ، يحسن ان يحمد المؤلف على حسن قصده ، واناقة اسلوبه وبديع تصويره الشاعري ونقاوة لغته .

القاهرة — حبيب الزحلاوي

اللغات من غير معلم

***

لم تعد في حاجة الى ترجمان اثناء رحلاتك الى بلاد العالم .. حسبك ان تقتني نسخة من هذه المجموعة :

- الانكليزية من غير معلم
- الفرنسية من غير معلم
- الالمانية من غير معلم
- الايطالية من غير معلم
- الاسبانية من غير معلم
- الفارسية من غير معلم

اسهل طريقة في اوضح اسلوب في اقصر وقت .

دار العلم للملايين
بيروت